مـــدى الـكـرمـل
المركز العربي للدراسات الإجتماعية التطبيقية

مـدى الكرمل

برنامج دراسات إسرائيل

شخصيّات في السياسة الإسرائيليّة

6

عوفاديا يوسيف (Ovadia Yosef)

(1920-2013)

إعداد: إيناس خطيب

آذار 2014

عوفاديا يوسيف (Ovadia Yosef)

(2013-1920)[1]

- وُلِد في بغداد في العام 1920.
- قَدِم إلى فلسطين مع والديه في العام 1924.
- شغل منصب قاضي المحكمة التوراتيّة في مصر بين العامين 1947-1950.
- شغل منصب الحاخام الرئيس لإسرائيل بين العامَيْن 1973-1983.
- من مؤسّسي الحزب الدينيّ الشرقيّ «شاس».
- كان الزعيم الدينيّ والروحيّ لحزب «شاس».
- أصدر فتوى دينيّة تحلّل إرجاع الأراضي مقابل السلام قُبَيْل توقيع اتّفاقيّة السلام مع مصر.
- امتنع عن دعم اتّفاقيّة أوسلو (أ) (1993)، وعارض اتّفاقيّة أوسلو (ب) (طابا 1995)، وعارض خطّة الانسحاب الأحاديّ الجانب في العام 2005.
- عُرِف بتفوّهاته العنصريّة، ولا سيّما تجاه العرب.
- عارض منح سِمَة دينيّة للعادات والتقاليد اليهوديّة بشتّى فئاتها.
- له إصدارات تشريعيّة عديدة.
- حاصل على جائزة إسرائيل للأدب التوراتيّ.
- من أبرز الشخصيّات الدينيّة التي أثّرت على مجريات السياسة الإسرائيليّة.
- توفّي في العام 2013.

1 شكر خاص للباحث نبيه بشير لملاحظاته ومراجعته هوية الحاخام عوفاديا يوسيف

حيـاتـه

وُلد عوفاديا يوســـيف[2] في بغداد في الرابع والعشرين من شهر أيلول في العام 1920. وهو الابن البكر بين ثمانية أبناء لأبيه يعقوب وأمّه جرجية. أُطلق على عوفاديا يوسيف الاسم عوفاديا تيمّنًا باسم جدِّه عبد الله عوفاديا الذي وقع صريعًا في أحد الاشتباكات الدامية التي حدثت في بغداد، وعلى اسم الفقيه يوسيف حاييم صاحب كتاب «بِن إيش حاي»[3]. لاحقًا تبنّى عوفاديا عوفاديا اســـمه الثاني يوسيف كاسم عائلته وأصبح يعرف بعوفاديا يوسيف. قَدِمَ عوفاديا إلى فلسطين بصحبة والديه وأخويه في العام 1924، بحثًا عن مصدر رزق وفرص عمل جديدة. سكنت العائلة عند وصولها في حيّ «بيت يسرائيل» المجاور لحيّ «مئة شعاريم» في مدينة القدس. قام يعقوب والد عوفاديا باســـتئجار حانوت صغير في نفس الحيّ، اعتاشت منه العائلة مدّة أربعين عامًـــا. عمل أفراد العائلة جميعهم في هذا الحانوت. في تلك الأيـــام، اعتادت العائلات المتديّنة والفقيرة أن ترســـل أطفالها إلى المدرسة الدينيّة («اليشـــيفاه») لتعلُّم القراءة والكتابة والتعاليم الدينيّة. برز عوفاديا منذ نعومة أظافره باجتهاده ومواظبته وذاكرته القويّة. وبســـبب الإطراء الذي حَظِيَ به من معلّميه، اســـتمرّت العائلة في إرساله للدراسة، حتّى إنّهم اضطُرّوا إلى إرساله إلى حيّ آخر لإكمال دراسته. من الجدير ذكره أنّ التعليم في كُنُس الســـفارديم[4] كان تحت إشراف التيّار الدينيّ الإشـــكنازيّ-الغربيّ، والذي كان يحافظ على التمييز البنيويّ (الهرميّ) داخل مجتمع الحريديم، بحيث يحتلّ اليهود السفارديم المراتب الدونيّة قياسًـــا بالإشكناز. عند بلوغه سنّ الحادية عشرة، انتقل عوفاديا للدراسة في المعهد الدينيّ «بورات يوســـيف» الذي أقامه الفقيه يوسيف بن حاييم في البلدة القديمة في مدينة القدس. عُرف عوفاديا في هذا المعهد بفطنته واجتهاده وحدّة لسانه، وكذلك ببغضه وحقده لكلّ من أهانه، وهي صفات لازمته في جميع مراحل حياته. بعد خمس ســـنوات من دراسته في معهد بورات يوسيف، حصل عوفاديا على إجازة حاخام وخُصِّصت له دروس ثابتة يقوم بإلقائها. بقي عوفاديا مواظبًا على إلقاء دروســـه في هذه المدرسة حتّى تعيينه رئيسًا للمحكمة اليهوديّة الدينيّة في مصر (في العام 1947).

تـــزوّج من مرغليت ذات الأصول الحلبيّة، وأنجبا أحد عشر ولدًا. شـــجّعت مرغليت زوجها وأدارت بيته، واشتهرت بســـيطرتها على مجريات الأمور في بيتهما على صعيد المقابلات السياسيّة والشخصيّة. وتوفّيت في العام 1994.

2 يعتمد هذا التعريف بهُويّة عوفاديا يوسيف في أغلبه على كتاب السيرة الذاتيّة الخاصّ بالرابي نفسه. نيتسان حن وأنشيل ببر (2004). **قديس، عوفاديا يوسيف، السيرة الذاتيّة**. القدس: كيتر.

3 كتاب فتاوى ودروس كان قد ألقاها يوسيف بن حاييم في كُنُس بغداد. تُعتبر الفتاوى متشدّدة جدًّا. عارض عوفاديا يوسيف هذه الفتاوى لصرامتها وشدّتها.

4 نعتمد لفظة «سفاراد»، التي يُقصد بها جميعُ اليهود الذين من أصول شرقيّة، بمن فيهم اليهود المطرودون من الأندلس وذرّيّاتهم، بالرغم من أنّ لفظة «سفاراد» يُقصد بها الأندلس أو إسبانيا حاليًّا، على أنّها تسمية مخطوءة؛ إذ اعتقد اليهود قديمًا خطأ بأن «سفاراد» المذكورة في التوراة هي بلاد إسبانيا ولكن القصد في التوراة إلى قرية قديمة تقع في لبنان حاليًّا. وبالرغم من ذلك، إنّ هذه اللفظة متداولة بكثرة في الخطاب اليهوديّ، ولذلك فقد اعتمدناها في الورقة الحاليّة لأنّها تشير إلى التقسيم الدينيّ الطائفيّ الثنائيّ بين الطائفة اليهوديّة من أصول شرقيّة والطائفة اليهوديّة من أصول أوروبيّة. وخلافًا لذلك، فإنّ التقسيم «شرقيّين» وَ «غربيّين» يشير إلى التقسيم الثقافيّ لا الدينيّ حصرًا.

تقلّد عوفاديا يوســـيف مناصب مرموقة عديدة: بدءًا بمنصبه كرئيـــس قضاة المحكمة الشرعيّة اليهوديّة في مصر في العـــام 1947، ومن ثَمّ منصب قاضٍ في المحكمة الدينيّة في مدينة بيتح تكفا، وبعدها في مدينة القدس، وتقلّد بعدها منصـــب حاخام مدينة تل أبيب (في الفترة الواقعـــة بين العامين 1973-1968)، واختير لاحقًا ليشـــغل منصب الحاخام الرئيس لإسرائيل بين العامَيْن 1973 وَ 1983. أسَّـــس في العام 1984 مجلس حكماء التوراة الذي يقف على رأس حزب شـــاس الدينيّ. ومنذ ذلك العام حتّى وفاته كان يترأّس المجلس ويتزعّمه دينيًّا.

ألَّف اثني عشر كتابًا في الأحكام الدينيّة والشرعيّة، منها ما صدر على شـــكل أسئلة وأجوبة. كذلك صدرت له أربعة كتب تتضمّن أقواله وخطبه وأسئلة وإجابات قصيرة، وخمسة كتب تعتمد على فتاواه الدينيّة.

حصل على عدّة جوائز قيّمة، مـــن بينها جائزة إسرائيل للأدب التوراتـــيّ في العام 1970، وجائزة كوك المرموقة في العام 1953. لقّبه طلبته بالقديس وبكبير مفتي عصره. توفّي في شـــهر تشرين الأوّل من عام 2013 على أثر وعكة صحّيّة ألّمت به. دُفِن في مدينة القدس وشارك في تشييعه مئات الآلاف من أتباعه.

رئيس قضاة المحكمة اليهوديّة الدينيّة في مصر

كانت أولى المهامّ الرســـميّة التي أُوكِل عوفاديا يوسيف بها هي تعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعيّة اليهوديّة في مصر في العام 1947. تضاربت القصص بشأن عمله في مصر، فمن جهة يروي أتباعه أنّ السلطات المصريّة نكّلت به، بينما يروي هو قصّة مختلفة تمامًا. لم تدُمْ فترة عمله في مصر طويلاً، إذ عاد إلى إسرائيل في العام 1950 بعد أن اســـتقال من منصبه. بلغ تعداد اليهود في مصر في تلـــك الأعوام نحو 80 ألف يهوديّ، قطن معظمهم في حارة اليهود في مدينة القاهرة. عند وصوله إلى القاهرة، وجد عوفاديا يوسيف أنّ معظم اليهود في القاهرة لا يحافظون على التعاليم الدينيّة ولا على المحرّمات المفروضة على يوم السبت. كذلك الحال بالنسبة للمحكمة الشرعيّة، إذ لم يكن القضاة على جانب كافٍ من المعرفة بتعاليم الدين اليهوديّ، ونتيجة لهذا اهتزّت مكانة المحكمة بين اليهود المصريّين. في تلك الفترة، شـــغل منصبَ الحاخـــام الرئيس لمصر الحاخامُ حاييم ناحوم أفندي[5] الذي عُرف باعتماده اليسْر في الدين وتقديمه تســـهيلات دينيّة لليهود في مصر. فكان أكثر ما أغضب عوفاديا يوسيف بشدّة هو استعمال مكبِّرات الصوت في صلاة يوم السبت، إذ يعتبر استعمالها منتهكًا فرائض يوم الســـبت. كذلك غضب من معاملات الطلاق المعتمَدة في المحكمة الشرعيّة اليهوديّة وإقرار طلاق أزواج كثيرة بطرق غير شرعيّة، ولهذا عمل جاهدًا ليجعل هذه القرارات ســـارية المفعول وإضفاء الشرعيّة عليها. بالإضافة إلى عمله كقاضٍ، فقد كان يدرس يوميًّا في مدرسة دينيّة. ووجد وقتًا للاستمتاع كذلك ببعض الأيّام التي قضاها في مصر، إذ كان يحبّ الاستماع إلى الأناشيد الدينيّة اليهوديّة في الكنيس، وكان قد خصّص أيّام الأحد (الذي اعتُبِر يوم عطلة) للرحلات والتجوال في ربوع مصر والاستماع إلى الموسيقى.

5 وُلد في تركيّا (1873-1960)، وشغل منصب حاخام باشا في الإمبراطوريّة العثمانيّة (الرابي المسؤول عن يهود الإمبراطوريّة)، وشغل لاحقًا منصب الحاخام الأكبر في مصر. ذاع صيته بوصفه قاضيًا ومفتيًا، وكان متخصّصًا بعلم اللسانيّات واللغة العربيّة والتاريخ. كان مندوبًا في البعثة التركيّة في معاهدة لوزان، وعمل مستشارًا للسلطات التركيّة في واشنطن.

قاضٍ في المحكمة الدينيّة المحلّيّة في بيتح تكفا والقدس

وقد شـــغل منصب قاضٍ في المحكمة الدينيّة المحلّيّة في مدينة بيتح تكفا، بعد عودته من مصر سنة 1950، وانتقل بعدها ليشـــغل نفس المنصب في مدينة القدس. ومن أهمّ أحكامه كقاضٍ في المحكمة الدينيّة المحلّيّة هـــو تشريع نكاح الأخ من أرملة أخيه عديمة النســـل، إذ كان هذا التشريع محرّمًـــا عند اليهود المتديّنين الإشكناز.

حاخام مدينة تل أبيب السفارديّ

شـــغل منصب الحاخام الرئيس لمدينة تل أبيب في الفترة الواقعـــة بين العامَيْن 1972-1968. عُرف عنه تســـاهله وتســـامحه في الأحكام الدينيّة، ومعارضته لتزمّت اليهود المتديّنين الإشكناز. وقد كان يعلّل هذا التسامح بضرورة تقريب اليهود إلى دينهم وتحبيبهم به وعدم تنفيرهم من الدين وتعاليمه.

الحاخام الرئيس لإسرائيل (1973-1983)

أقيمت المؤسّســـة الحاخامية العليا في إسرائيل في فترة الانتداب البريطانيّ في فلســـطين في العام 1921، بإيعاز من الحاخام أبراهام كوك الذي ترأّسها حتّى وفاته في العام 1935. حينها تقرّر أن يرأس المؤسّسة حاخامان؛ واحد ممثّل عن الطائفة الإشـــكنازيّة، والآخر ممثّل عن الطائفة السفارديّة. يختار الحاخامَيْن مجلـــسٌ يتألّف من رجال دين يمثّلون الفئتين، إضافة إلى مستشـــارين غير متديّنين. شرعت الكنيســـت الإسرائيليّة بسَـــنّ قانون المؤسّســـة الحاخاميّة العليا، في العام 1980، فحُدّدت بموجبه طريقة الانتخاب ومدّة العمل في هذا المنصب، وأُلحق بمكتب رئيس الحكومة.[6]

مثّل عوفاديا يوســـيف الطائفة السفارديّة عند شـــغله لهذا المنصب الذي دام لعشر سنوات كانت مليئة بالمشـــاحنات الدينيّة والسياسيّة بين الإشـــكناز والســـفارديم، وبين الشرقيّين والغربيين، وبين الأغنياء والفقراء. والفتوى التي تُعتبر أهمّ فتاوى عوفاديا يوســـيف في هذا المنصب هي تحريره كلّ النساء الأرامل اللاتي قضى أزواجهنّ في حرب أكتوبر 1973 من عقود الـــزواج، وذلك ليتمكّنّ من متابعة حياتهنّ دون معيق. أمّا الفتوى الحاسمة التي أصدرها فهي تلك الصادرة في العام 1979، عند توقيع اتّفاقيّة السلام بين مصر وإسرائيل، التي «حلّل فيها التنازل عن الأرض مقابل الحفاظ على أرواح اليهود». ولأهمّيّتها البالغة، نورد في ما يلي بعض ما جاء فيها: «إذا قرّر رؤساء وقادة الجيش وأعضاء الحكومة أنّ هناك إزهاقًا للأرواح

6 عن الموقع الرسميّ للمؤسّسة الحاخاميّة العليا (تاريخ الزيارة 2014/01/28).
http://www.rabanut.gov.il/show_item.asp?levelId=61631

إذا لم تُعَدْ أراضٍ من أرض إسرائيل، وأنّ هناك خطر نشوب حرب فوريّة من طرف جيراننا العرب، وأنّه إذا أعيدت لهم الأراضي ستبعد عنّا مخاطر الحرب وسيكون هناك احتمال لتحقيق سلام حقيقيّ وموضوعيّ (طويل الأمد)، وكيف يمكننا خوض الحرب مع عدوّ قاس (عنيف) سلاحه وحشيّ لا يحيد عن الشيوخ والأطفال، في هذه الحالة علينا إعادة الأراضي والتخلّص منهم بحسب كلّ الآراء من أجل نيل هذا الهدف، لأنّه ليس ثمّة ما هو أسمى من الحفاظ على الأرواح».[7] أثارت هذه الفتوى جدلاً بين صفوف المتديّنين في ذلك الوقت، إذ قام الحاخام الأكبر للإشكناز بإصدار فتوى مغايرة تحرّم إرجاع الأراضي مقابل السلام.

شغل عوفاديا يوسيف منصب الحاخام السفاراديّ الأول لغاية العام 1983، بعد أن سُنّ قانون المؤسّسة الحاخاميّة العليا في العام 1980 وحدّد فترة إشغال المنصب لغاية 10 سنوات فقط، بعد أن كان التعيين في السابق لمدى الحياة. اقتراح سنّ القانون جاء من قِبل وزير القضاء آنذاك، موشيه نسيم، الذي أراد، وَفقًا لبعض الروايات، أن ينتقم من عوفاديا يوسيف الذي كان السبب في فصل أبيه من منصب الحاخام الرئيس عن فئة السفارديم. وفي ذات الوقت، أراد وزير القضاء التخلّص من غورِن (1918-1994)[8] الذي اعتُبِر مصدر إزعاج لحزب المفدال والليكود.[9] بالرغم من محاولة الحاخامين (يوسيف وغورن) جَسر الهُوّة والخلاف اللذين بينهما كي يتصدّيا لهذا الاقتراح، فشلا في ذلك وأطيح بهما من منصبهما في العام 1983. رفض عوفاديا يوسيف أن يسلّم بعَزلِه، ويقال إنّه استعمل لقب الحاخام الأكبر لسنوات طويلة بعد عزله من المنصب. هذه الحادثة تركت أثرًا كبيرًا لدى عوفاديا يوسيف وحفزته لإقامة حزب شاس ومجلس حكماء التوراة، ليكون لديه قاعدة سياسيّة يرتكز عليها إذا أراد التأثير مستقبلاً على صُنّاع القرار في إسرائيل.

عوفاديا يوسيف وشاس

في العام 1983، وبعد عزله من منصب الحاخام الرئيس، دُعِيَ عوفاديا يوسيف لحضور اجتماع حاخامات سفارديم، اعتُبِر بمثابة اجتماع تأسيسيّ للحزب الجديد «شاس» الذي كان قد أُعلِنَ عن قيامه في العام 1982 للمشاركة في الانتخابات المحلّيّة لبلديّة القدس. أُطلِق على هذا الحزب الجديد اسم «اتّحاد السفارديم حرّاس التوراة» واختير الحرفان «ش» و «س» لتمثيله.[10] يُعتبر هذا الحزب أوّلَ حزب دينيّ يمثّل الطائفة

7 نبيه بشير (2005)، **عودة إلى التاريخ المقدّس: الحريديّة والصهيونيّة**، دمشق: قدمس، 368-369؛ نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 236.

8 الحاخام شلومو غورن شغل منصب حاخام الجيش في الفترة الواقعة بين العامين 1948-1971، ومن بعدها شغل منصب حاخام مدينة تل أبيب الإشكنازيّ في الفترة الواقعة بين العامين 1971-1973، ومن ثَمّ شغل منصب الحاخام الإشكنازيّ الرئيس لإسرائيل في الفترة الواقعة بين العامين 1973-1983.

9 نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 250.

10 يُعتبَر الاسم «شاس» اختصارًا متعارفًا عليه بين المتدينّين اليهود يشير إلى مجموعة الفتاوى الدينيّة اليهوديّة الشفويّة المتناقَلة أبًا عن جدّ (المشناه)، وخصوصًا تلك المجموعة التي وضعها الحاخام يهودا هناسيه (135-220م)، وهي مقسّمة إلى ستّة أجزاء، ولذلك تسمّى «شيشت سدري مشناه» (بشير، 2006، مصدر سابق، 30).

الشرقيّة (السفاراديم) في المشهد السياسيّ الحزبيّ في إسرائيل، بعد سنوات من احتكار الأحزاب المتديّنة الإشكنازيّة تمثيل المتديّنين كافّة، وتهميشهم لليهود الشرقيّين. كان عوفاديا يوسيف يعرف في قرارة نفسه أنّه يتعيّن عليه أن يعزّز القوّة السياسيّة ليستطيع من خلالها احتلال مراكز التأثير في الدولة. بعد انعقاد الاجتماع التأسيسيّ لحزب شاس، سُئِل عوفاديا يوسيف عن هذا الحزب، إلاّ أنه أجاب أنْ لا علاقة له به. خلال الانتخابات المحلّيّة الأولى التي شارك فيها حزب شاس، عبّر عوفاديا يوسيف عن غضبه من طريقة طرح الحزب لمشاكل السفاراديم لأنّها تُؤجّج الحرب بين فئتَي الإشكناز والسفاراديم، وهدّدهم بالتخلّي عنهم علنًا إذا استمرّوا على هذا الحال. من جهة ثانية، لم تتقبّل فئة الإشكناز هذا الحزب وخوضه الانتخابات المحلّيّة لمنافسته على جمهور الحريديم في القدس. في ذلك العام، وبعد فوز الحزب الجديد بثلاثة مقاعد في بلديّة القدس، أعلن عوفاديا يوسيف في احتفاليّة الفوز: «إنّ النجاح في انتخابات البلديّة هو بداية الطريق لانتخابات الكنيست».[11] بالتوازي مع هذا النجاح وهذا الإعلان، ظهرت تصدّعات بين صفوف حزب المتديّنين الإشكناز «أغودات يسرائيل»، وعلى وجه التحديد بين الرئيس (الأدمور) الخامس من حسيدي غور،[12] والحاخام شاخ (1898–2001). وقد استُثمِرت هذه التصدّعات لاحقًا لصالح الحزب الجديد وعوفاديا يوسيف، إذ انشقّ الحاخام شاخ (الإشكنازيّ والذي اشتهر بتوجّهاته المناهضة للصهيونيّة) عن أغودات يسرائيل، وآثر دعم شاس في انتخابات البلديّة ومن ثَمّ في الكنيست. حاول شاخ أن يستولي على مجلس حكماء التوراة، المجلس الذي يقدّم المشورة والتوجيه لحزب شاس، من خلال تعيين تابعيه، إلاّ أنّ عوفاديا يوسيف رفض هذه الخطوة كي لا يستولي شاخ على الحزب الجديد، ولهذا قام بتعيين مستشار واحد من تابعي شاخ وعيَّن البقية من بين جمهور أتباعه. كذلك لم يكن الأمر بيسير عند وضع قائمة المرشّحين (للكنيست أو البلديّة)، فقد كُلِّف بهذه المَهمّة أرييه درعي الذي استطاع أن يرضي الحاخامين، وحصل حزب شاس في نهاية المطاف على أربعة مقاعد في أوّل خوض له لانتخابات الكنيست في العام 1984. يعود الفضل في هذا الفوز لشاخ الذي قال عنه أحد مصوّتي شاس: «إن الحاخام شاخ هو الذي يختار، ونحن ندلي بأصواتنا فقط».[13] تشير هذه الشهادة إلى أنّ عوفاديا يوسيف لم يكن حتّى تلك اللحظةِ الشخصيّةَ التي تطغى على قرارات شاس أو على مصوّتي شاس، وإنما شاخ هو الشخصيّة الأكثر تأثيرًا. استمرّ شاس على هذا الوضع حتّى انتخابات العام 1992.

ظهرت خلافات بين الحاخامَيْن في العام 1990 على أثر الإطاحة بحكومة الوحدة الوطنيّة، بين تكتّل الليكود وحزب العمل، التي شُكّلت نتيجةَ التعادل بين الحزبين في انتخابات 1988. ودار الخلاف حول مسألة تحالف حزب شاس مع الليكود أم مع العمل بهدف تشكيل حكومة جديدة، إذ آثر عوفاديا يوسيف التحالفَ مع حزب العمل، وسعى شاخ للتحالف مع الليكود. أدّى هذا الخلاف في نهاية المطاف إلى ضعضعة

11 نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 259.
12 سيمحا بونيم ألتار (1898–1992) هو الرئيس (الأدمور) الخامس لفئة أتْباع طائفة حسيدي غور.
13 نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 271.

مكانة شـــاخ وتعزيز قوّة عوفاديا يوسيف.[14] ازدادت الخلافات بين الحاخامَيْن بعد انتخابات الكنيست في العام 1992، إذ دعا شـــاخ مرّة أخرى إلى التحالف مع الليكود، بينما خالفه عوفاديا يوسيف الرأي ودعا إلى التحالف مع حزب العمل. نتيجة لهذا الخلاف والانضمام إلى حكومة العمل برئاســـة إســـحاق رابين، تخلّص الحزب من وصاية شاخ على شاس، وتفرَّد بها عوفاديا يوسيف ورئاسته لمجلس حكماء التوراة.[15] إنّ تحالف شـــاس مع حكومة رابين لم يدُمْ طويلاً، إذ انســـحب من التحالف الحكوميّ واستقال وزراؤه من حكومة رابين قُبَيْل التوقيع على اتّفاقيّة أوســـلو في العام 1993. لم يترجَم هذا الانسحاب إلى تصويت مُعارِض للاتّفاقيّة، وإنّما اكتفى الحزب بالامتناع فقط عن التصويت. وهكذا استطاع عوفاديا يوسيف أن يصدّق على الاتّفاقيّة بطريقة غير مباشرة. انقلب هذا الموقف عند التوقيع على اتّفاقيّة طابا في العام 1995، إذ عارض عوفاديا يوســـيف الاتّفاقيّة ولم يوافق أن يُصْدِر فتواه الســـابقة مرّة أخرى، بخصوص إعادة الأراضي عند التوقيع على اتّفاقيّة الســـلام مع مصر، وادّعى أنْ لا شريك في هذه الحالة، وأنّ إعادة الأراضي للفلســـطينيّين لن يمنع نشوب حرب بين إسرائيل والفلســـطينيّين ولن يمنع إلحاق الأذيّة باليهود، ولهذا رفض قطعًا أن يُصْدر فتوى مماثلة.

ازداد عدد مقاعد حزب شاس بعد انتخابات الكنيست في العام 1996 من 6 مقاعد إلى 10 مقاعد، واستمرّ جمهوره بالازدياد. اســـتطاع شاس في انتخابات الكنيست للعام 1999 أن يحصل على 17 مقعدًا بالرغم من تهم الفســـاد التي وُجّهت لرئيس القائمة آنذاك أرييه درعي، والتي أفْضت إلى سجنه الفعليّ. لم يكن أرييه درعي الشـــخصيّة البارزة الوحيدة في شـــاس التي جرت إدانتها بتهم فساد، فقد أدين شلومو بن عزري أيضًا، الذي شغل مناصب وزاريّة مُهمّة في حكومات إسرائيل المختلفة. ونشهد تراجعًا في انتخابات الكنيســـت للعام 2003 على صعيد عدد المقاعد التي حصل عليها شـــاس، إذ بلغت 11 مقعدًا فقط، وهو العـــدد ذاته الذي لا يزال الحزب يحافظ عليه حتّى الآن. قُبَيْـــل التصويت على خطّة الانفصال من غزّة في الكنيست، دعا عوفاديا يوسيف في العام 2004 جميع أعضاء الليكود وجميع أعضاء الكنيست بالتصويت ضدّ تنفيذ خطّة الانفصال الأحاديّة الجانب، كما هاجم الحاخامات الإشـــكناز الذين دعَوْا إلى الامتناع عن التصويت.[16]

اســـتطاع شاس في غضون سنوات قليلة أن يزيد قاعدته الاجتماعيّة، وأن يعزّز مكانته على صعيد قطريّ. فعلى العكس من الأحزاب المتديّنة الإشكنازيّة، لم ينحصر جمهوره في المدن والأحياء المتديّنة وذات الطابع الدينيّ فقط، وإنّما انتشر في جميع المدن والبلدات من الشـــمال حتّى الجنوب. يعزو الباحث نبيه بشير (في كتابه «جدليّة الدينيّ والســـياسيّ في إسرائيل») ذلك لعدة أسباب، بدءًا من مشاركة الشرقيّين في انتخابات الســـلطات المحلّيّة في العام 1983 في عدّة قوائم أهمُّها قائمة «اتّحاد الســـفارديم حرّاس التوراة» (حزب

14 بشير، 2006، مصدر سابق، 41.
15 المصدر السابق، 42.
16 مرسيانو إيلان (2004). «الحاخام عوفاديا: يجب التصويت ضدّ الانفصال»، موقع يديعوت أحرونوت الإلكترونيّ (2004/10/6): http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-2993787,00.html (تاريخ الزيارة: 2014/2/4).

«شاس» لاحقًا) في عدّة مدن منها القدس وبني براك وطبريّا وبئر السبع وبعض مدن التطوير مثل أوفاكيم ونتيفوت. عزّز هذا النجاح في انتخابات السلطات المحلّيّة شعور الشرقيّين بضرورة المشارَكة في انتخابات الكنيست. أمّا السبب الآخر فيكمن في تبنّي عوفاديا يوسيف وحزب شاس شعار «إعادة المجد التليد» الذي يُعتبر شعارًا مميّزًا حاز على تضامن عاطفيّ وإيديولوجيّ واسع بين صفوف الجماهير الشرقيّة، ولا سيّما أنّه يذكّر جمهور الشرقيّين بماضيهم المتخيَّل ويعود بهم إلى مَشاربهم المقدَّسة والأصالة، ويثير فيهم الشوق إلى واقع أفضل كما كان في السابق. ومن أجل إعادة هذا المجد وإحيائه، باشر شاس في إقامة مؤسّساته وفروعه في جميع المدن والمناطق السكنيّة التي تقطنها غالبيّة شرقيّة، وكذلك قامت بفتح مدارس وروضات أطفال وخدمات مختلفة، ممّا أدّى إلى زيادة نسبة التصويت من قِبَل هذه الفئات لشاس. استطاع شاس منذ دورته الأولى في الكنيست الحصول على حقيبة الداخليّة، ما عزّز من مكانته وأدّى إلى تدفّق الأموال على مؤسّساته الجديدة.[17]

تجديدات وانتقادات دينيّة أتى بها عوفاديا يوسيف:[18]

من أبرز التجديدات والانتقادات التي جاء بها عوفاديا يوسيف على الصعيد الدينيّ، والمرتبطة بالصراع الإثنيّ القائم في المجتمع الإسرائيليّ:

1. تراث دينيّ شرقيّ في مقابل تراث دينيّ إشكنازيّ: تجاهلت المعاهد التوراتيّة الحريديّة الإشكنازيّة في تفسيراتها للدين ونصوصها التفسيرات والاجتهادات الدينيّة الشرقيّة. وكان قد انتقد عوفاديا يوسيف الحاخامات الشرقيّين تحديدًا الذي تخرّجوا من هذه المعاهد، وطالَبَهم بالعودة إلى النصوص الأصليّة والأصيلة بدلاً من الاعتماد على تراث إشكنازيّ تَطَوَّرَ في بلاد الغرب.

2. معارضة منح العادات والتقاليد طابعًا دينيًّا: وقف عوفاديا يوسيف ضدّ الفرضيّة الحريديّة الإشكنازيّة القائلة إنّ البلاد كانت خالية عند قدومهم، على الرغم من وجود تراث يهوديّ شرقيّ محلّيّ، وطالب بإخضاع تأويلاتهم وتشريعاتهم إلى المفاهيم والتفسيرات الدينيّة الشرقيّة المحلّيّة، وذلك عملاً بالقاعدة الشرعيّة القائلة إنّ على الشخص اليهوديّ التصرّف بحسب تقاليد وتفاسير آبائه وأجداده، ولكن إنْ قَدِمَ إلى مجتمع يهوديّ آخر يتمتّع بتفاسير دينيّة مختلفة، فعليه أن يتقبّلها ويتصرّف بموجبها. ولهذا لم يتقبّل عوفاديا يوسيف هيمنة حاخامات الحريديم الإشكناز على التفاسير الدينيّة وإخضاعها للتراث الإشكنازيّ، وانتقد المفهوم الذي يمنح عادات وتقاليد اجتماعيّة طابعًا دينيًّا. ولهذا قام بتطوير توجُّه خاصّ به يَعتمد على توجُّه الفقيه يوسيف قارو (1488-1575) ابن مدينة صفد في كتابه «شولحان عروخ»، الذي نظّم فيه الشريعة اليهوديّة

17 نبيه، 2006، مصدر سابق، 39-41.
18 يعتمد هذا القسم على كتاب: بشير، 2006، مصدر سابق، 47-54.

ووضع لها تفسيرًا دون الاعتماد على العادات والتقاليد كما هو متعارَف عليها. وحاول أن يُخضِع جميع الشرقيّين كذلك لتعاليم الفقيه يوسيف قارو هذه.

3. التسامح في التشريع والفتاوى: يرى عوفاديا يوسيف أنّ على الحاخامات تسهيل الحياة على اليهود لا تعسيرها.

4. الطائفيّة: يحافظ المجتمع الحريديّ على الانعزال في مجتمع مغلق واقتصار العلاقة مع المحيط على الحالات الضروريّة فقط. أمّا توجُّه عوفاديا يوسيف فيختلف تمامًا، إذ يتوجّه هو إلى جميع اليهود قاطبة، إلى الشرقيّين أو إلى الحريديم أو إلى المتديّنين، كما سعى إلى صقل وخلق معايير وقيم وأسلوب حياة موحّد لأبناء المجتمع اليهوديّ كافّة.

عوفاديا يوسيف ومؤسّسات الدولة القانونيّة وحقوق الإنسان ومفهوم الديمقراطيّة[19]

يقول شيلغ إنّ عوفاديا يوسيف، خلافًا لحاخامات تيار الصهيونيّة الدينيّة، لم يَقُم بنشر أفكار أو مقالات أو كتابات تتعلّق بالديمقراطيّة أو بمؤسّسات القضاء أو بحقوق الإنسان، ولهذا كان عليه أن يستخلص تلك الآراء من فتاواه ومن قراراته كقاضٍ في المحاكم الدينيّة ومن سلسلة كتبه «أسئلة وإجابات» («يَبِيّاع أُومار»). يظهر من هذه الكتابات أنّ عوفاديا يوسيف لم يتناول موضوع الديمقراطيّة كمبدأ أو تعارضها مع عالم التوراة. ولهذا جرى استخلاص تلك الآراء، في نهاية المطاف، من نظرته وتعامُله مع الهيئة القضائيّة الإسرائيليّة على أرض الواقع. ينظر عوفاديا يوسيف إلى هيئة القضاء على أنّها محاكم أغيار،[20] (يقوم باستعمال تعبير «غوي» بمعنى غير يهوديّ)، ويعتقد أنّ الحاجة إلى قضاة يهود يقاضون حسب قانون الأغيار هو خطير ومرفوض أكثر من الحاجة إلى قضاة أغيار. وعلى هذا الغرار، فقد أصدر فتوى تشريعيّة تحرّم توجُّه الناس إلى المحاكم، وتحرّم توجُّه المحامين إلى هذه المحاكم والمرافعة في القضايا، إلاّ إذا لم يعطَ الشخص حقّ اختيار المحكمة التي تبتّ في قضيّته. أقرّ عوفاديا يوسيف بضرورة اختزال مفهوم «قانون البلاد هو القانون» («دينا دملكوتا دينا») بحيث يشمل مواضيع تقع ضمن إطار احتياجات الجمهور فقط، مثل جباية الضرائب، ولا تشمل سائر المواضيع، وبخاصّة كلّ ما يتعلّق بالأحوال الشخصيّة. وقد أوجب ذلك وَفقًا لتوجُّه يوسيف احترام قوانين الدولة بصورة انتقائيّة أو جزئيّة. كذلك اعتبر قوانين التوراة فوق قوانين الدولة، ولهذا نجد في كتابه أسئلة وإجابات-«يَحفيه داعَت» إعفاءً لطلاّب المعاهد الدينيّة من دفع الضرائب، وذلك لأنّ القانون التوراتيّ يعفي الطلاّب الذين يعكفون على دراسة التوراة من ذلك.

19 يعتمد هذا القسم على البحث التالي: يائير شيلغ (2006). **وجوب اتّباع الأكثرية؟ مواقف الحاخامات في إسرائيل من الديمقراطيّة**، القدس: المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة.

20 حَرَّمَ عوفاديا يوسيف في العام 1981 في أحد كتبه التقاضي أمام المحاكم المدنيّة، ووصف من يذهب للتقاضي في هذه المحاكم كمن يضرب موسى وتوراته. نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 352.

كان للحاخام يوســـيف مواجهات مبدئيّة معارِضة مع جهاز القضاء. من ذلك قضيّة ميراث الإناث؛ فوَفق التراث التشريعيّ في اليهوديّة، إذا تألَّفَ وَرَثة الميّت من الإناث والذكور فالميراث يوزّع بالتساوي بين الذكور فقط، وبالتالي لا تنال الإناث شـــيئًا من الميراث؛ وإذا كان الوَرَثة هم من الإناث فقط فعندها يوزَّع الميراث عليهنّ بالتســـاوي؛ بينما يقسّم القانون المدنيّ الورثة بالتساوي بين جميع الأفراد الذكور والإناث على حدّ سواء.

خرج عوفاديا يوسيف علنًا ضدّ قرارات المحكمة في قضيّتين، أولاهما قرار تجريم أرييه درعي بتهمة الفساد، ويَذكر الجميع نداءه: «هو بريء، هو بريء» الذي أصبح شعارًا لحزب شاس في انتخابات الكنيست للعام 1999، التي حصل فيها الحزب على 17 مقعدًا. وقد علّل موقفه هذا، اســـتنادًا إلى الشريعة اليهوديّة، بأنّه لا يمكن الأخذ بشهادة الشاهد إذا كانت له مصلحة في الدعوة. القضيّة الثانية هي إخراج جثمان من مقبرة يهوديّة لأنّ المدفونة كانت مســـيحيّة. أصدرت المحكمة العليا أمرًا بعدم إخـــراج جثّتها وإبقائها مدفونة بنفس المقبرة، إلاّ أنّ مؤسّسة الدفن («حِفْرا قديشا») قامت بإخراج الجثمان بالرغم من أمر المحكمة العليا. لقد كان موقف عوفاديا يوسيف معاديًا لقرار المحكمة، ووصف قرارها بأنه يساوي اليهود المتديّنين بيهود المنفى، وأنّ المحكمة هي محكمة أغيار. بعد إعادة دفنها في نفس المقبرة، اقترح عوفاديا يوسيف على عائلات الموتى المدفونين بجانب ذلك القبر أن يقوموا بإخراج جثامين موتاهم ودفنها في مكان آخر.

أمّا بالنســـبة لموقفه من حقوق الإنسان، فهو لم يتناول الموضوع على نحوٍ مباشر في أحكامه الخاصّة بغير اليهود، إذ لم يتناول الأسئلة اللاهوتيّة والأسئلة القوميّة إلاّ في سياق تناول الأسئلة التشريعيّة، ولهذا لا ذكْر مباشر في كُتُبه لمكانة العرب في دولة إسرائيل. ويســـتقي موقفه العامّ من غير اليهود من موقف الشريعة اليهوديّة الذي يميّز بين اليهود وغير اليهود. بالرغم من هذا، يَفصل في تعامله بين المسلمين وغير المسلمين، باعتبار أنّ الإســـلام دين توحيديّ بينما يرى المســـيحيّةَ دينَ شِرْك. ويعتمد هذا الفصل على قاعدة فكريّة مُفادُها أنّ غير اليهود في الشرق أفضل من غير اليهود في الغرب. ويتجلّى هذا التمييز بين غير اليهود بحسب دياناتهم، إذ نراه يسمح بدخول المســـاجد ويحرّم دخول الكنائس. كذلك، يسمح ببيع الأراضي في «أرض إسرائيل» للمسلمين في السنة السبتيّة («شْناة شْـــمِيطاه»)،[21] وذلك لأنّ دينهم ليس دين شِرك، ولا تسري عليه قوانين العبارة «لو تحنيم»[22] (لا تعطِهِم مكانًا للسكن – والأمر يتعلّق بكلّ من هو غير يهوديّ حسب الشريعة اليهوديّة). لا يســـتوي هذا الموقف مع قوله بتحريم بيع البيوت في إسرائيل «حتّى لو دفعوا مبالغ عالية، لن نسمح لهم بالسيطرة هنا»، ذاك التحريم الذي ينسجم مع مواقف سائر الحاخامات الآخرين على

21 **السنة السبتيّة**: (بالعبريّة: «شناة شميطاه») هي السنة التي يجب أن تُراح فيها الأرض، وكلمة «شميطاه» كلمة عبريّة معناها تبوير الأرض. ويُلاحَظ أنّ شعائر السنة السبتيّة تنطبق على فلسطين وحدها.

22 مجموعة محرّمات في الشريعة اليهوديّة فُرِضت من خلال عبارة توراتيّة وردت في سفر التثنية («دفاريم»). تشمل هذه المحرّمات بيع وتأجير العقارات في «أرض إسرائيل» لكلّ من هو غير يهوديّ، ومنح الهدايا وامتداح كلّ من هو غير يهوديّ أيضًا.
للاطّلاع على نصّ العبارة بالعربيّة، انظروا في الرابط التالي: http://www.baytallah.com/bible/deuteronomy1-12.htm
للاطّلاع على تفسير العبارة، انظروا في موقع الموسوعة اليهوديّة (بالعبريّة) على الرابط التالي:
http://www.daat.ac.il/encyclopedia/value.asp?id1=1329

صعيد تأويل هذه العبارة القائلة بتحريم بيع العقارات والأراضي للعرب بشكل عامّ.

أمّا بالنسبة لموقفه من الدروز، وخاصّة أولئك الذين يخدمون في الجيش الإسرائيليّ، فقد سمح بالصلاة عليهم في الكُنُس الإسرائيليّة لأنّهم يقومون بحماية سكّان دولة إسرائيل. في مجال آخر، يتناول عوفاديا يوسيف في إحدى إجاباته السؤال عمّا إذا كان مسموحًا لطبيب يهوديّ أن ينتهك فرائض يوم السبت من أجل معالجة أحد المرضى من غير اليهود. جاء في إجابته أنّه يُسمح للطبيب اليهوديّ بذلك من أجل معالجة شخص غير يهوديّ لا لأسباب إنسانيّة، بل لمنع أذيّة يهوديّ إن لم يقم بمعالجته. كذلك يسمح بالحصول على تبرّع بالدم وبأعضاء من غير اليهود إنْ كان المريض في وضع حرج ومهدّدًا بالموت.

لا يمكننا تجاهل تفوُّهات عوفاديا يوسيف تجاه العرب، التي أثارت سخط السياسيّين على العموم والعرب بصورة خاصّة. فقد نَعَتَ العربَ عمومًا، في الانتفاضة الثانية، بالأفاعي، واستطرد قائلاً: «يُعتبر العرب حيوانات، لا حيوان أسوأ منهم، يأتي المسيح ويرسلهم إلى جهنّم».[23] وفي أحد دروسه قبل عيد الفصح من العام 2001، قال عوفاديا يوسيف: «هؤلاء العرب متباكون. ممنوع رحمتهم. يجب إرسال صواريخ {على كيف كيفك}، إبادتهم، ظالمون وملعونون».[24] وكذلك هو صاحب المقولة الشهيرة: «فليندثر أعداؤنا وكارهونا.. أبو مازن وكلّ هؤلاء الأشرار، فليندثروا جميعهم من العالم، ليضربْهم الله بضربة طاعون، هؤلاء الإسماعيليّين الفلسطينيّين الأشرار كارهي إسرائيل».

عوفاديا يوسيف والصهيونيّة

لا تعرِّف شاس نفسها كحركة صهيونيّة، ولكنّها حذرة جدًّا في انتقادها للصهيونيّة حفاظًا على جمهور ناخبيها؛ ويقوم حاخامات شاس بتعريف طريقهم على أنّها الصهيونيّة الحقّة. فهم ينتقدون الصهيونيّة لتعدّيها على اليهوديّة دون المسّ بالأسس القوميّة للصهيونيّة.[25] وتُوجَّه بين الحين والآخر اتّهاماتٌ لشاس على أنّها حزب غير صهيونيّ، وقد دافع عوفاديا يوسيف عن شاس ضدّ هذه الاتّهامات، حيث قال: «ما هذا «غير صهيونيّ»؟ هذه خرافات. هذا مصطلح اختلقوه. فأنا شغلت منصب الحاخام الرئيس لمدّة عشر سنوات- منصب رسميّ في الدولة. بماذا نحن غير صهيونيّين؟! نحن نصلّي من أجل صهيون، والقدس وسكّانها، من أجل إسرائيل، من أجل حاخاماتها وطلاّبها. ما هذا «صهيونيّون»؟ حسب مصطلحاتنا، الصهيونيّ هو مَن يحبّ صهيون ويعمل على قاعدة فرائض توطين الأرض. فإنّني أدعو دومًا إلى الهجرة («علياه») إلى إسرائيل. بماذا هم صهيونيّون أكثر منّا»؟!

23 نيتسان حن وأنشيل بير، مصدر سابق، 361.
24 المصدر السابق.
25 بشير، 2006، مصدر سابق، 65.

خـاتـمـــة

يعكـــس تاريخ الحاخام عوفاديا يوســـيف، إلى حدّ بعيد، التحوّلات التي حصلت في المجتمع والسياســـة الإسرائيليّة خـــلال العقود الثلاثة الأخيرة. تعكس مكانة الحاخام تنامِـــيَ تأثير الفئات الشرقيّة والدينيّة على صناعة القرار الســـياسيّ في إسرائيل، وعلى تفسير الديانة اليهوديّة، بعد أن كانت مهمَّشة إلى حدّ كبير في العقود الأولى لإقامة دولة إسرائيل. هذا التحوّل يُبرز كذلك أنّ تنامي التأثير الســـياسيّ للفئات الشرقيّة حصل من خلال تداخل الدينيّ والطبقيّ بالسياسيّ؛ إذ لا يمكن الفصل في حالة إسرائيل بين المكانة الطبقيّة والإثنيّة والسياســـيّة، خطوط التماسّ تتداخل في هذه الحالة. فقط حين قام الحاخام يوســـيف، ومن ثَمّ شـــاس، بالدمج بين هذه المركّبات استطاع أن يحظى بالشرعيّة الضروريّة لتبوُّء مكانة خاصّة في المجتمع الشرقـــيّ خاصّةً والإسرائيليّ عامّةً. وما لا يقلّ أهمّيّة عن كلّ ما ورد هو التصالح الذي أبداه طرح الحاخام يوســـيف والقطاعات التي مثّلها مع المشروع الصهيونيّ؛ إذ إنّه لم يرَ في المشروع الصهيونيّ تناقضًا مع الرؤيا الدينيّة اليهوديّة بل تبنّى إلى حدّ بعيد تفســـير الحاخام كوك القائل إنّ الصهيونيّة والاستيطان هما بداية الخلاص لشـــعب إسرائيل ومرحلة مؤقّتة لبلوغ مملكة إسرائيل. تقبُّله وتصالُحُه مع الصهيونيّة، إلى حدّ تَصَهْيُنُ التيّار الدينيّ الشرقيّ بحسب مفهومهم للصهيونيّة، وفّرا كذلك الشرعيّةَ الضروريّة للتأثير على صناعة القرار في إسرائيل، إلى حدّ أنّه لم يعد بالإمكان اتّخاذ قرارات مصيريّة في السياســـة الإسرائيليّة وفي الحكومات دون موافقة الحاخام يوســـيف وحزب شاس، أو على الأقلّ اتّخاذهم موقفًا حياديًّا لا يعارض السياســـة علنًا. تزايُد تأثير الفئات الشرقيّة والحاخام يوسيف، وحزب شاس تحديدًا، على السياسة العامّة والمجتمع هو أحد الأســـباب التي دفعت أحزاب وسط-اليمين، الإشكنازيّة بغالبيّتها، إلى معارضة دخولهم إلى الحكومة الحاليّة والمحاولة للحدّ من تأثيرهم على الحياة العامّة في إسرائيل.